إر ١:١١-١٩
رمزيّة الشجرة الساهرة والقدر الذي يغلي

الأخت كليمنص حلو

باحثة في الكتاب المقدّس

مقدّمة

كلمة النبيّ هي كلمة بشريّة، ينطق بها رجل واقعيّ، ولكنّ الروح القدس يسكنه وهو يوصل إلينا مشروع الله وحياته.

في حياة النبيّ خبرة مزدوجة: هي أوّلاً خبرة، مع قربها وحميميّتها من الذي يرسل، تبقى غير مفهومة؛ فهي طورًا تزعج وتارة تجرح، ولكنّ هذا الجرح يحرّر الإنسان وينضجهُ. ويعمل النبيّ، من جهة ثانية، خبرة يرفضها الإنسان الذي هو غير قابل للفهم، كما صوّره الكاردينال مارتيني بلغة حديثة غنيّة بالصور تلفت نظرنا وتحاكينا.

كلمة النبيّ إرميا هي كلمة ليومنا لأنّها صادرة عن القلب في ظروف تشبه ظروفنا، وإيمان يتخطّى الصعاب التي أحاقت بالنبيّ من كلّ جهة. والفصل الأوّل الذي نتأمّل فيه يُقسم إلى جزءين: دعوة الله لإرميا، وإثبات هذه الدعوة.

دعوة الله للنبيّ (آ ١-١٠). هذا الحوار قد نضج مدّة عشرين سنة قبل كتابته. إنّه ثمرة اختبار داخليّ عاشه النبيّ في لقائه للربّ وتعلّقه به وثقته الكاملة به، بحيث يصبح النبيّ هو القائم مقام شؤون الربّ.

١ - أيقونة إرميا: رمزيّة الشجرة الساهرة والقِدْر الذي يغلي (إر ١:١١-١٩)

لقد فضّل إرميا أن يترجم دعوة الله له بصور تسهم في المفهوم: مصنع الفاخوريّ، الإبريق المكسور، زنّار قماش الكتّان، إبريق الخمر، النور والظلام؛ كلّها تختصر متطلّبات العهد.

بين هذه الصور، يبقى ما خفي عن الأعين، وهو إرميا بالذات: إنّه الأيقونة الأكثر تعبيرًا وعمقًا في الدخول في سرّ الله في التاريخ. إنّه النبيّ الذي تحوّلت حياته إلى نبوءة، لأنّها تعبير عن ذاته. وهي الصخرة التي ترتكز عليها حياته وكلّ وجوده. السرّ في هذا التحوّل هو رسوخ دعوة الله له. إنّها القدرة التي تسنده في المضايق واليأس. والنصّ الأوّل في كتابه هو استذكار لهذه الدعوة. إنّ قراءتها والتأمّل فيها مرآة لدعوتنا وللرسالة التي أوكلت إلينا.

١) الدعوة في مقطعين:

- **في الأوّل** (آ ٤-١٠)، يؤكّد الربّ لإرميا أنّه اختاره منذ الأزل، "عرفه وقدّسه" (١: ٥). ورغم معارضة إرميا لضعفه، يكمل الربّ أوامره دون شرط، فيشعر النبيّ بدعوة وجوديّة عندما يثبت الربّ كلمته بعلامة رمزيّة، "فيلمس الربّ فمه"، ويشرح له المهمّة بستّ نقاط: عليك أن "تقلع وتهدم، وتهلك وتنقض، وتبني وتغرس". مهمّة هدم وبناء (آ ٩-١٠).

- **وفي المقطع الثاني** (آ ١١-١٩)، تجاه هذا الأفق الواسع الذي أمامه، أصبح بإمكان إرميا أن "يرى": "إنّي أرى غصن شجرة ساهرة"، هي شجرة اللوز، التي

ترافق الربيع لكي تزهر قبل سائر الأشجار، وهي توحي باليقظة الدائمة؛ فالله هو الساهر دائمًا؛ "الله يراني" يردّدها الطوباويّ إسطفان نعمة مع جميع القدّيسين. والنبيّ يرى أيضًا قِدْرًا تغلي ووجهها من جهة الشمال، وهذه الرؤية هي استباق لهجمة الشرّ والغضب من جهة الشمال. إنّها تنذر بالحروب والويلات.

هذه الرؤية المزدوجة، النور والظلمة، تغتني بكلمات الكتاب المقدّس كالأساس الذي يبني عليه إرميا خبرته الغنيّة بمعانيها النبويّة؛ إنّها تدلُّ على الطرقات التي سيتبعها النبيّ في حياته (آ ١١–١٣).

٢) هذه الطرقات تتطلّب جهوزيّة وتحضيرًا من قبل إرميا. إنّها دعوة مزدوجة للصمود والمواجهة.

هذا الاستعداد يعبّر عنه الربّ برمزين قويّين يسندان الرؤى الأولى: "أشدد حقويك وقُم". هذا التحفيز يدعو إلى عدم الخوف: "لا تفزع من وجوههم" (١: ١٧).

والرمز الثاني هو تحويل إرميا إلى "مدينة حصينة وعمودٍ من حديد وأسوارٍ من نحاس". هذه البشرى تؤكّد لإرميا أنّ حكمة الربّ كالصخر؛ فهو لن ينهزم: "إنّي معك لأنقذك، يقول الربّ" (آ ١٨–١٩). هذا الوعد يردّد ما وعده الربّ في بداية الاختبار (١: ٨)، وهو يكرّر "اليوم" ما قيل في البدء.

وهكذا أُعطي لإرميا عينان تريان من خلال الأشياء والأحداث؛ فالنبيّ لا يتكلّم بدون رموز وحركات رمزيّة تجسّد كلمة الله. وفي هذا الفصل الأوّل نجد أحداثًا غنيّة بالتأثير على حياة إرميا وعلى موقفه الاجتماعيّ والسياسيّ، ولمحة عن الملوك والشعوب الوثنيّة والإسرائيليّة، وعن العذابات التي احتملها النبيّ، والصعوبات التي جابهها. ولكنّ قدرة الله تنقذه ولا تهمله، ضدّ الإحباط المحيق به.

٣) معاني الرؤى: إنّ محورها هو الكلمة الفاعلة

بالنسبة إلى أشعيا، إنّ رؤيته هي الربّ على العرش وحوله تسبحة السارافيم: إنّها رؤيا مجد (أش ٦). وكذلك حزقيّال، فإنّه يرى "مركبة مجد الربّ" وهي تغادر أورشليم (حز ١).

أمّا إرميا فهو يتلقّى "كلمة" ويتلّقفها. إنّها "الكلمة" المصدر والأساس. هي أشبه بالحديث الباطنيّ. وهي الأقرب لخبرة إيليّا على جبل حوريب، الذي سمع صوت الربّ همسًا وكأنّه صوت الصمت.

في هذا السياق، إرميا هو الأقرب إلينا؛ فإذا استغرقنا نحن في الصلاة يحدّثنا الربّ بهمسات عميقة. في الصمت يكشف لنا ذاته ويتكلّم؛ فإرميا هو نبيّ الكلمة الخافتة الناعمة المرتضاة.

أربع رؤى رسخت في ذهن إرميا وأثارت حياته وأغنتها: شجرة اللوز، الوعاء الذي يغلي، الزنّار الذي يشدّ الحقوين ويوقف نصبًا، والمدينة المحصّنة والأسوار من نحاس.

أ.**غصن شجرة اللوز** يتألّق في زهره في تباشير الربيع. هذه الشجرة الرمزيّة تحمل في طيّاتها معاني لا عدّ لها. هذه الكثافة تنبئ عن تاريخ الخلاص بأكمله. إنّها "شجرة الحياة" منذ سفر التكوين، وهي فيه "شجرة المعرفة" والتمييز (تك ٢: ٨–١٠)، وهي صورة "المنارة المطروقة من ذهب"، رمز إسرائيل على مستوى نجمة داود. إنّها "شجرة النور" بأغصانها، وكلّ شعبة من الشعب الستِ تحمل شكل "زهرة اللوز"، تنيرها سبعة سُرُج (خر ٢٥: ٣١–٣٧).

هذه المنارة البيبليّة أعطى رسمها الربّ لموسى على الجبل (خر ٢٥: ٤٠). وسُرُجُ المنارة لم تكن تُضاء إلاّ في الليل. لذلك دعيت "الساهرة"، لأنّها تومئ إلى الربّ الساهر على شعبه، وهي عيونه التي "تراقب كلّ الأرض" (زك ٤: ١٠).

وفوق كلّ هذه الرموز، إنّ "غصن الشجرة الساهرة" هو الربّ بذاته مع طاقة إشعاعه.

هذه الشجرة الساهرة ألهبت مشاعر إرميا، فرأى فيها حضور الربّ ويقظته الدائمة وحبّه الغامر. والعهد الجديد قد استلهم صورة شجرة الحياة، وعلى الأخصّ الرؤيا: "الغالب سأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة" (رؤ ٢: ٧). هذه الشجرة مغروسة في قلب المدينة وعلى ضفّتي النهر تُثمر اثنتي عشرة ثمرة؛ إنّها رمز

الحياة والخصب وشفاء الأمم" (رؤ ٢٢: ٢). "إنّها رمز الطوبى للذين يغسلون ثيابهم" (٢٢: ١٤)، أو للشجب والحذف من الحياة ومن "المدينة المقدّسة" "للذين يتجرّأون أن يحذفوا حرفًا من الأقوال النبويّة" (٢٢: ١٩). إنّ كلمة الله فاعلة، وهو يسهر على إتمامها بكاملها.

ب. وهل القِدْر الذي كان يغلي، كان يحضّر طعامًا أم سخطًا وغضبًا ودينونة؟

إنّ رؤية القِدْر التي تغلي تستبق الكارثة من الشمال. إنّها هجمة آشور التي تهدّد وجود يهوذا وأورشليم، لأنّ عبادة الأصنام التي غرقا بها تبرّر الدينونة التي تقترب منها: "من الشمال تكون فاتحة الشرّ على جميع سكان الأرض"، ليس فقط على المحيط.

هذا القِدْر هو هنا "كأس الغضب" (أش ٥١: ١٧)، وهو "كأس خمر الغضب" (إر ٢٥: ١٥ و٢٧). ويقول مزمور عن الربّ: "يمطر على الأشرار جمرًا وكبريتًا" (مز ١١: ٦). وضربات الرؤيا السبع في الجامات في رؤيا يوحنّا (١٥: ٧) تُنذر بالدينونة.

وقد وصف حزقيّال هذه الكأس بأنّها "عظيمة الاتّساع" كالخابية، مثيرة للضحك والسخرية، وكأس رعبٍ وخراب" كتلك التي أصابت السامرة أخت أورشليم (حز ٢٣: ٣٢-٣٤).

ولكنّ هذه القِدْر في الإنجيل تصبح كأس "عماد النار" في آلام المسيح وموته (مر ١٠: ٣٨-٣٩). وقد خاف هو بالذات من شربها: "يا ربّ أبعد عنّي هذه الكأس" (لو ٢٢: ٤١-٤٤). والكأس الإفخارستيّ هو تجديد للعهد بدم الحمل، فتصبح كأس الخلاص (مز ١٦: ١٢-٣١) وكأس البركة" (١ كو ١٠: ١٦).

بين هذين المعنيين السلبيّ والإيجابيّ يختار إرميا في رؤياه "كأس الغضب" التأديبيّ من الربّ، مدعاة للخراب والدمار "من السيف الذي لا يرحم، ومن حدّة غضب الربّ" وعقابه للكافرين (إر ٢٥: ١٣-٢٩).

ج. تجاه هجمة الشرّ المرتقبة يمنح الربّ قدرته الموعودة إلى إرميا برؤية مزدوجة، شرط تحصينه ذاته بتأهّب قويّ وبثبات دعوته رغم المآسي والمحن.

– الرؤيا الأولى: ضرورة **شدّ الزنّار على الخصر** استعدادًا للمقاومة والوقوف، "قم"، بدءًا بالصراع.

– الرؤيا الثانية: هي "وعد الربّ" بتحويل إرميا إلى **مدينة محصّنة، وعمود من حديد، وأسوار من نحاس**، تقي شرّ الأعداء وتتصدّى لزحفهم؛ فإرميا لن يُغلب لأنّ الربّ معه لينقذه.

هذه الرؤى الأربعة رموز تذكّر النبيّ بالنعمة الأولى عند دعوة الله له، وتقوّي عزيمته عند اليأس والصعوبات، وبالأخصّ عندما لم يعد كلام الربّ يُسمع؛ فتذكار الدعوة الأولى يساعده على الصمود والمجابهة والثقة بما وعده الربّ به بأن يكون معه، هو الذي ألقى على عاتقه مسؤوليّة الرسالة.

٢ – أخيرًا لمحة عن أيقونة إرميا وهي كناية عن بعض خطوط عريضة

سبع خبرات تقريبًا عملها إرميا في حياته:

– أوّلاً، شعر ذاته دائمًا بين يدي الربّ.

– هو مدعوّ إلى رسالة جامعة: لقد أُرسل إلى الملوك والشعوب وتوسّعت آفاقه.

– اختبر خبرة محدوديّته: خوف، عدم قدرة وعدم أهليّة.

– لكنّه فهم أنّه يمكنه أن يتخطّاها: "إنّي لكلّ ما أرسلك له تذهب وكلّ ما آمرك به تقول".

– إختبر قدرة الله الذي يصنع من الضعف قوّة، فأعطاه عيونًا تكتشف معنى الأحداث وأوقاتها.

– اختبر لأوّل مرّة التمييز، فرأى أبعد من المظاهر في رموز الشجرة والقدر والزنّار والمدينة المحصّنة. قرأ في عمقها ولمس فيها حضور الربّ.

– وقبل كلّ شيء شعر بتحوّله الداخليّ من ضعف وخوف إلى قوّة غير معهودة، إلى طبيعة جديدة، كتلك التي تكلّم عنها في "العهد الجديد"، ذروة سفر إرميا الروحيّ: "سأكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا" (٣١: ٣١–٣٤). الخجول أصبح يجابه الناس ويُخيف البعض فدعوه: "رعبٌ في الداخل".

خاتمة

لقد اختبر إرميا أنّ الدعوة ولادة جديدة، طاقة حيويّة، كشف عن الذات العميقة، وعدٌ لخصبٍ لم يُسمع قطّ به. عيون ترى ما لا يرى في الأشياء والأحداث.